عيسى اسكندر المعلوف

المؤرخ اللبناني

بمناسبة ذكراه السابعة في ٢ تموز ١٩٦٣

بقلم أسد رستم

أبصر النور في قرية كفرعقاب بالقرب من بسكنتا لبنان في السنة ١٨٦٩ . وتلقى علومه الابتدائية في كفرعقاب في مدرسة الإرسالية الاسكوتلاندية ثم انتقل الى مدرسة هذه الإرسالية العالية ، في الشوير فأكمل علومه الثانوية فيها واتقن العربية، تعلّم الانكليزية ومبادئ الفرنسية. وعلّم في المدرسة البطريركية الارثوذكسية في دمشق ١٨٩٠ وفي مدرسة كفتين الارثوذكسية ١٨٩٣ ثم في الكلية الشرقية بزحلة ١٩٠٠ . وأنشأ غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية وسائر الشرق مجلة — النعمة — في السنة ١٩٠٩ فأسند قسم الابحاث التاريخية فيها الى صاحب الترجمة . ولدى انتهاء الحرب العالمية الاولى انشأت حكومة فيصل العربية شعبة للترجمة والتأليف فكان الاستاذ المعلوف من اعضائها . ثم قام مجمع علمي عربي في دمشق في عيد الانتداب، كان المترجم له من اعضائه العاملين . وفي السنة١٩٢٨ انتدب الاستاذ المعلوف لعضوية المجمع العلمي اللبناني ثم اصبح في السنة ١٩٣٤ عضوًا عاملًا في مجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة ، وبعد ذلك بسنتين أكرمته حكومة البرازيل فجعلته عضوًا مراسلًا لأكاديمية التاريخ والآداب البرازيلية . وجاءت الحرب العالمية الثانية واشتدت وطأة — الزمن — على صاحب الترجمة فقضى وقته منقبًا مدققًا في بيته مشتًا في بيروت ومصيفًا في زحلة .

وأقدم مصنفاته كما يظهر كتابه في الكتابة ضمّنه أبحاثًا في الخط واللغة والانشاء وطبعه في أربعة أجزاء صغيرة في السنة ١٨٩٥ . ثم عني بتاريخ أسرته فتنقل من قرية الى قرية ودير الى دير ومكتبة الى مكتبة وأطلّ في السنة ١٩١١ بتاريخ بلدته زحلة في ٢٩٨ صفحة وأصدر في هذه السنة عينها مجلة

الآثار فاستمرت ثلاث سنوات متتالية ثم احتجبت في أثناء الحرب العالمية الاولى وظهرت سنتين بعدها . وفي السنة ١٩١٩ ألقى المعلوف محاضرة طويلة في الطب العربي في المعهد الطبي العربي في دمشق وطبعها في كراس كبير في ٦٨ صفحة . وأردفها بمحاضرة ثانية في تاريخ الطب قبل العرب نشرها في السنة ١٩٢١ . ثم انتهز فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في جامعة بيروت الاميركية في السنة ١٩٢٥ فألقى فيها محاضرة ثالثة في أشهر الاسر الطبية وأشهر المخطوطات العربية في الطب . ثم عني بالتراجم فصنف رسالة في سيف الدولة في السنة ١٩٢٧ ورسالة في سيرة البطريرك الانطاكي غريغوريوس الرابع في السنة ١٩١٩ . ثم كتاباً في فخر الدين ابن معن في السنة ١٩٣٤ في ٤٤٨ صفحة . وأردفها في السنة ١٩٤٤ بالغرر التاريخية في الاسرة اليازجية في ١٢٨ صفحة .

ومن مصنفاته التي لا تزال مخطوطة ، تحفة الكاتب للمعرّب والكاتب ، والاخبار المدوّنة والمروية في تاريخ الاسر الشرقية ، وشحذ القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة وأهم خزائن الكتب العربية ومعجم الالفاظ العامية والدخيلة ، ومغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر والدرّ الثمين في أدباء القرن العشرين ، والمكتبة التاريخية ، ونفائس المخطوطات ، وشرح المتن في تاريخ قضاء المتن في لبنان ، وتاريخ وادي التيم ، وجبل القلمون ، ويومية الحرب الكبرى ، وشرح الامثال العربية العامية ، وذيل في شعراء النصرانية وهو استدراك على ما فات الاب لويس شيخو من شعراء النصرانية وغير ذلك . وهو مفيد جداً وجدير بالحفظ في دار الكتب اللبنانية الرسمية .

وكان ، رحمه الله ، عالي الهمة ، ماضي العزيمة يركب ظهور الوعاث ولا يفوته مطلب ، وكان يغرق في البحث ويمعن في التنقيب ، ويستقصي في التنقيب. وكان سريع الحفظ ذكوراً يتلو من ظهر قلبه كأنما يقرأ في كتاب مسطور . وعلى الرغم من قوة ذاكرته وبعده عن النسيان فانه سريع التدوين .

ومصنفاته التاريخية غزيرة المادة جزيلة المباحث واضحة التعبير جمة الفوائد. ولكنها لغزارة مادتها وكثرة مباحثها لم تكن دائماً مطردة التنسيق .

فكتابه (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) هو أقرب الى موسوعة صغيرة تضم معلومات شتى في مواضيع متنوعة لا علاقة لبعضها بموضوع الكتاب.

وقد قال هو في ديباجة هذا المصنَّف وتحت العنوان ما نصه : كتاب تاريخي اجتماعي عمومي يحتوي على وصف الوقائع والعادات والاخلاق والشؤون العمرانية وأصول الأسر الشرقية وفروعها ومشاهيرها ومواطنها ومباحث علمية وجغرافية واحصائية .

ونحن نرى انه لو أحسن التنسيق ، وأحكم الحدود وحصر كلامه في هذا الكتاب بموضوعه لاضاع علينا فوائد جمة لا نجدها اليوم الا في هذا الكتاب . فدواني القطوف في تاريخ بني المعلوف هو في الواقع موسوعة في أحوال لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر كما وعاها شيوخه في أواخر هذا القرن . وفضل عيسى اسكندر المعلوف في تدوين ما سمع كبير جدا . ولو لم يسمع ويدوّن لتاهت أخبار وأخبار وطمست آثارها ومقالات المؤرخ المعلوف في مشاهير الطائفة الارثوذكسية التي نشرها تباعاً في مجلة النعمة هي في حد ذاتها كنز لا يفنى ومادة لا يستغني عنها كل من يعنى بتاريخ الكنيسة الجامعة في سورية ولبنان وفلسطين في العصور الوسطى والعصور الحديثة . وبعض موادها من نوع المواد التي سجلت في دواني القطوف مأخوذة من اوراق قديمة سطت عليها الدهر ومن صدور رجال طويت أخبارهم . ولكن بعضها الآخر يتم عن صبر وثبات وتفتيش وتمحيص ونقد وسلامة استنتاج . ومن هذه مقالته في عبد الله ابن الفضل وما نقله في القرن الحادي عشر عن اليونانية والسريانية الى العربية وردّه على الاب لويس شيخو في بعض ما ذهب اليه خطأ في هذا الموضوع . ومن هذا النوع أيضاً رسالته في الشيخ سليمان بن حسن الذي دخل في النصرانية في اوائل القرن الرابع عشر واصبح أحد أساقفها . ومن رسائله هذه أيضاً رسالته في أسقفية حوران فانها جزيلة الفائدة لما تحتوي عليه من نوادر الاخبار ، وقد لا نجد المؤرخ مجموعة من المعلومات التاريخية عن زحلة أكمل مما ورد في كتاب عيسى اسكندر المعلوف عن تاريخ هذه البلدة . ولكنه لم يعنَ بنقد أخبارها عنايتهُ بنقد الاخبار التي جاءت في رسائله المشار اليها أعلاه . وقرأ لنا رحمه الله ، فصولاً من كتابه في الاسر الشرقية فأثار اعجابنا بسعة اطلاعه وطول أناته وصبره على التفتيش والجمع والتدوين . وكان يعتز بمصنَّفه هذا ويعتبره أعظم ما ألّف ولا نعلم اذا كان أكمله قبل وفاته ولكنه من المصنَّفات النادرة التي يجب نشرها .